د. ميلاد المقرحي*

تجارب التاريخ الوحدوية
دراسة تاريخية تحليلية مقارنة لثلاث تجارب وحدوية الولايات المتحدة الأمريكية، ايطاليا، وألمانيا

هذه الدراسة تهتم بتحليل ومناقشة ثلاث تجارب تاريخية وحدوية وهي التجربة الأمريكية، أي استقلال الولايات المتحدة الامريكية واتحادها، والتجربة الايطالية، والتجربة الألمانية على التوالي.

تاريخياً لم يسبق ألبتة لأمة ان تكوّنت موّحدة ومتكاملة، فالأمم تنشأ تدريجياً كنتيجة لعدد من الأحداث والتجارب والتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مشكلة القومية والوحدة في الولايات المتحدة الأمريكية هي محاولة إيجاد تجانس اجتماعي وسياسي بين السكان وذلك بعد الاستقلال وتشكّل الدولة، في حين كانت مشكلة الوحدة والقومية في ايطاليا وألمانيا هي مشكلة التفكك السياسي الذي لم يكتشف إلا بعد انتشار الوعي القومي في كلا البلدين.

تعتبر الحركات القومية الوحدوية في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وايطاليا وألمانيا أمثلة واضحة للمجتمعات التي كانت تنتقل فيها وحدات سياسية مستقلة من الانفصال إلى الاتحاد السياسي، وتقدم التجربة الأمريكية صورة واضحة من تجارب الوحدة في التاريخ العالمي، وتظهر في القومية الأمريكية خصائص خاصة تختلف بها عن القوميات الاخرى، وهذا الاختلاف يرجع، في الواقع، إلى تاريخ تكوين الشعب الأمريكي في ظروف استثنائية تختلف تماماً عن ظروف تشكيل القوميات الأوروبية(1)، تجربة الولايات المتحدة الأمريكية مرت بمرحلتين أساسيتين،

---

* أستاذ مساعد، قسم الدراسات التاريخية والأثرية، كلية الاداب والتربية، جامعة قاريونس، بنغازي.

(1) نور الدين حاطوم، دراسات مقارنة في القوميات الألمانية والايطالية والأمريكية والهندية، (القاهرة، 1966)، ص 171-181، انظر أيضاً نديم البيطار، من التجزئة .. إلى الوحدة: القوانين الأساسية لتجارب التاريخ الوحدوية (بيروت، 1980)، ص 232-257.

الأولى مرحلة الثورة والتوحيد والحرب ضد الامبراطورية البريطانية وهذه المرحلة تعرف أيضاً بحرب الاستقلال 1774-1783، والثانية مرحلة الحرب الأهلية ـ القومية الوحدوية ـ 1861-1865.

أولا ـ الثورة الأمريكية 1774-1776 «حرب الاستقلال»:

منذ نهاية القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر تمكنت بريطانيا من تأسيس مجموعة من المستعمرات بلغ عددها ثلاث عشرة مستعمرة على الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية، وكانت أكثرها قدماً مستعمرات الشمال: مساشوستس، وبنسلفانيا، وإنجلترا الجديدة، وقد كان غالبية سكان هذه المستعمرات الشمالية من الفلاحين وصائدي الاسماك، أي أنهم قد تعودوا منذ البداية على الحياة الشديدة القاسية ويحبون المساواة والحرية وهم الذين سيقومون بنشر الثورة[1]، وقد كانت هذه المستعمرات الثلاث عشرة قد تكونت على أساس انها ولايات نشأت عن طريق اصدار مرسوم ملكي وكانت لها حكوماتها الخاصة، ولكن من الناحية الاقتصادية كانت بريطانيا تعتبر هذه المستعمرات كأسواق للوطن الأم أي لها ومن هنا نشأ الصراع بين الوطن الأم وابناء المستعمرات، والواقع انه منذ منتصف القرن الثامن عشر، ساد الشعور بين سكان المستعمرات الثلاث عشرة بأن مصالحهم تختلف عن مصالح انجلترا في أكثر من نقطة، وأنه من الضروري أن يتحدوا حتى يتمكنوا من الدفاع عن مصالحهم وبالفعل اجتمع ممثلو المستعمرات في ألباني بمستعمرة نيويورك سنة 1754م، وشرعوا في دراسة مشروع الاتحاد الأمريكي، إلا أن الظروف السياسية لم تساعد على تنفيذ هذا المشروع، على الأقل في هذه الفترة، ولكن الشيء المؤكد هو ان الصراع بين الوطن الأم وبين ابناء المستعمرات قد بدأ.

ومن ناحية أخرى قررت بريطانيا زيادة الضرائب إلى اقصى حد ممكن، فبريطانيا كانت ترى ان عليها ان تحصل على أكبر ربح تجاري ممكن من المستعمرات

---

(1) كما نشأت في المستعمرات الشمالية بعض معاهد التعليم العالي، مثل كلية ييل «Yale»، وكلية هارفارد «Harvard»، والتي أصبحت فيما بعد من أكبر جامعات الولايات المتحدة الأمريكية بل من أكبر جامعات العالم:
«Yale university and Harvard university».

الأمريكية وأن على المستعمرات أن تتحمل نصيبها في نفقات الحاميات العسكرية الموجودة في امريكا للدفاع عنها وقامت بريطانيا أيضاً بتطبيق القوانين التي تضمن للسفن الانجليزية احتكار التجارة البحرية مع المستعمرات كما قام البرلمان البريطاني بإقرار ان كل حكم قضائي، سواء أكان في بريطانيا أم في المستعمرات، ينبغي ان يكتب على ورق عليه خاتم الدولة ويباع لصالح الدولة، وكان هذا ما سمي بضريبة الدمغة سنة 1765م، وقد كان إقرار هذه الضريبة هو السبب المباشر في الصراع السياسي والعسكري الذي استمر لمدة ست عشرة سنة بين بريطانيا والمستعمرات الأمريكية ثم زاد خطورة عندما انتهى بثورة المستعمرات في سنة 1774م، في اكتوبر سنة 1765، وبالرغم من معارضة جورج الثالث (1760-1820)، الذي كان تفكيره السياسي المستبد يزيد من عنف مقاومة الأمريكيين، وافق مجلس العموم البريطاني على إلغاء قانون الدمغة، ولكن في نفس الوقت الذي ألغى فيه البرلمان البريطاني قانون الدمغة، أعلن حقه في فرض الضرائب على المستعمرات، كما أصدر في يونية سنة 1767 قانوناً بفرض ضرائب جمركية على بعض السلع المستوردة من بريطانيا مثل الزجاج والشاي والحديد والورق، وكرد فعل لهذا القانون قرر الأمريكيون عدم شراء السلع الخاضعة للضرائب وبعد ثلاث سنوات من الصراع إضطرت الحكومة البريطانية إلى إلغاء هذه الضرائب باستثناء ضريبة الشاي، الذي كان مشروباً وطنياً لا يمكن الاستغناء عنه، ومع ذلك قرر الامريكيون مقاومة كل عملية لتفريغ الشاي.

وقد حدث في ديسمبر سنة 1773 أن وصلت ثلاث سفن تحمل حوالي 340 صندوق شاي إلى ميناء بوستن «Boston»، فقام الأمريكيون بالصعود إليها وإلقاء حمولة الشاي في البحر، وكنتيجة لذلك قررت بريطانيا محاصرة ميناء بوستن والاستمرار في هذه العملية حتى يتم دفع ثمن البضائع التالفة، وهكذا إتحدت المستعمرات البريطانية الثلاث عشرة ضد بريطانيا، وأعلنت الثورة، واستطاعت بمساعدة فرنسا من أن تنتصر بعد صراع مسلح استمر ثماني سنوات، ففي 19 أبريل 1775، بدأت حرب الاستقلال الأمريكية واستمرت حتى سنة 1783.[1]

(1) جلال يحيى، معالم التاريخ الحديث، (الاسكندرية، 1976)، ص 194-195، انظر أيضا جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية 1815-1914، (القاهرة، 1971).

وكان الأمريكيون قد نظموا جيشاً قوياً واختاروا جورج واشنطن «George Washington» ليتولى قيادة الجيش وقيادة الثورة الأمريكية أيضاً، وقد قاد جورج واشنطن مرحلة النضال الأولى بإرادة قوية وعزيمة وصبر وثبات إلى درجة ان المؤرخين اعتبروا جورج واشنطن العامل الأساسي في توجيه وقيادة وتنظيم حركة كبيرة وجديدة في تاريخ العالم الحديث وهي الحكومة الشعبية الأمريكية.

وفي شهر مايو سنة 1776 أعلنت مستعمرة فرجينيا «Virginia» استقلالها وتبعتها المستعمرات الاخرى وبعد ذلك وفي 4 يولية من نفس السنة أعلن المؤتمر المنعقد في فيلادلفيا إستقلال الولايات المتحدة الأمريكية، وقد بدأ هذا الاعلان بتقديم كتبه توماس جيفرسون، نائب فرجينيا الشاب، وكان يمثل عرضاً فلسفياً لحقوق الانسان وللمبادىء التي ينبغي أن يستند عليها دستور الولايات المتحدة الأمريكية وكانت باختصار هي نظرية سيادة الشعب، وإعلان مبادىء الحرية والمساواة وهي نفس المبادىء التي ظهرت في سنة 1789 في أول دستور فرنسي أي في إعلان حقوق الانسان والمواطن في الثورة الفرنسية.[1]

وبالرغم من ان حرب الاستقلال الامريكية كانت طويلة المدى نسبياً ومليئة بالصعوبات إلا أن الأمريكيين قد تمكنوا في النهاية من الانتصار ويعود ذلك، كما سبقت الاشارة إليه، إلى قيادة جورج واشنطن، وقد كان جورج واشنطن من كبار المزارعين في ولاية فرجينيا، وأحد نواب تلك الولاية في المؤتمر الأمريكي الذي عينه قائداً عاماً للقوات الأمريكية وقد كان حذراً، واقعياً ونشيطاً، يعمل للصالح العام، بالاضافة إلى ذلك فقد كان «واشنطن» عنيداً لا يعترف باليأس، وبالرغم من ان جورج واشنطن لم يكن من رجال الاستراتيجية إلا أنه كان يتعلم الكثير من كل هزيمة، ويعيد إنشاء جيشه عند الضرورة وقد تمكن في نهاية الأمر من إنشاء جيش قوي استطاع به ان يوحد امريكا ويحقق استقلالها، ولم يكن واشنطن مجرد رجل عسكري، بل كانت لديه صفات رجل الدولة «Statesman» أيضاً، في الواقع ان واشنطن كان يمارس سلطة غير محدودة كبطل الولايات المتحدة الأمريكية القومي لأنه كان الرجل الوحيد الذي كانت الحكومة الأمريكية تعتمد عليه في

---

(1) جلال يحيى، معالم التاريخ الحديث، ص 195-198.

وقت الأزمات، وفي الوقت الحاضر يبدو ان كل امريكي يعتقد، وربما كان هذا الاعتقاد صحيحاً، أنه مدين باستقلاله وثروته وسعادته لجورج واشنطن، ويرى أيضاً أن من واجبه أن يضع صورة لواشنطن في بيته، وقد كانت الدعوات السياسية التي تتجه باسمه إلى الأمريكيين وتحثهم على الوحدة القومية، ظاهرة مستمرة في القرن التاسع عشر، فهي كانت تدعو إلى رفض الاقليمية والتجزئة وتجاوزها بتذكير الأمريكيين حبهم واحترامهم لجورج واشنطن.[1]

ومن ناحية اخرى فان توسع الولايات المتحدة الامريكية المتزايد أضحى مظهراً من أكبر مظاهر التطور أهمية وأخطرها شأناً بالنسبة إلى أوروبا والعالم أيضاً، فقد تضاعفت مساحة البلاد على أثر شراء ولاية لويزيانا سنة 1803، وانضمام فلوريدا سنة 1819، وكادت المساحة ان تتضاعف مرة ثانية بين سنة 1845 وسنة 1848 وذلك بانضمام ولايات تكساس، ومكسيكو الجديدة، وأريزونا، وكاليفورنيا.

ويمكن تبرير دوافع هذا الاتجاه التوسعي بالمصالح الاقتصادية وزيادة عدد السكان ومشغوليات السياسة الداخلية وبالاتجاهات النفسية الجماعية عند الأمريكيين[2] في سنة 1840، وصل عدد سكان الولايات المتحدة الأمريكية إلى 17 مليون نسمة ولكنه ازداد بنسبة 36% خلال العشر سنوات التالية، ويعود ذلك إلى الهجرة الأوروبية، وخاصة من ايرلندا بعد مجاعة سنة 1840 ومن ألمانيا بعد فشل الحركات الثورية التي قامت هناك سنة 1848م، وقد كانت الهجرة تصل إلى الولايات الشمالية في أغلب الاحيان ومن هناك تنتقل إلى المناطق الغربية من الولايات المتحدة الأمريكية، وقد أدى هذا إلى محاولة الولايات الجنوبية التوسع بدورها نحو الغرب لكي تحافظ على المكانة التي كانت تحتلها الولايات الجنوبية في

---

(1) من أجل معلومات شاملة حول جورج واشنطن كبطل الولايات المتحدة الأمريكية القومي راجع نديم البيطار، نفس المصدر السابق، ص 235-246، انظر أيضاً:

M. Ashworth, George Washington (New york, 1957), P. 640-650; M. Cunliffe, George Washington: Man and Monuwment (Boston, 1958), P. 8-14; Bernard Mayo, Myths and Men: Patrick Henty, George Washington, Thomas Jefferson (New york, 1959).

(2) جفري برون، الحضارة الأوروبية في القرن التاسع عشر 1815-1914، ترجمة عبلة حجاب، (بيروت، 1963)، ص 75-120، جلال يحيى، معالم التاريخ الحديث، ص 398.

الاتحاد ومن أجل مقاومة الضغط الذي كان يمارسه انصار تحرير الزنوج في المؤتمر الأمريكي «الكونجرس».

وفي نفس الوقت زاد عدد المدن التي اخذت في الانتشار تجاه الغرب أيضاً، كما زادت أهمية المدن التي تعتمد على الصناعة التي نمت بشكل ملحوظ في الولايات الشمالية، وأصبحت هذه الحالة تتناقض تماماً مع نظام الانتاج في الولايات الجنوبية وهي الولايات التي تعتمد على الزراعة وعلى الأيدي العاملة من الزنوج، وقد نتج عن ذلك صدام ظهر في الأفق بين الولايات الزراعية في الجنوب والولايات الصناعية في الشمال، هذا من الناحية الاقتصادية، أما فكرياً فقد أصبح الشمال الصناعي يتميز باتجاه ديمقراطي في تفكيره، بينما احتفظ الجنوب الزراعي باتجاه جمهوري، وهكذا نشأت طريقتان للتفكير، يعتمد كل منهما على الأوضاع الاقتصادية السائدة في الولايات الشمالية والولايات الجنوبية وعلى حالة المجتمع في الشمال والجنوب، وهكذا أدى انقسام البلاد إلى مجتمعين: صناعي في الشمال وزراعي في الجنوب إلى نشوء مصالح متعارضة ومتضاربة إلى حد كبير.[1]

وفي الوقت ذاته إختلف الناخبون الأمريكيون حول مسألة الابقاء على نظام الرق أو إلغائه، وحول مسألة الاحتفاظ بالمزارع الكبيرة أو الاعتماد على المزارع المتوسطة، أي متوسطة الحجم والتي يمكن زراعتها بسهولة دون الاعتماد على الزنوج وقد ظهر هذا الانقسام في صورة أكثر وضوحاً في انتخابات سنة 1860 وهي السنة التي انتخب فيها أبراهام لنكولن رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية، وكان لنكولن من مواليد الغرب الأوسط «Mid-west» وكان يمتاز بمعارضته الشديدة لمسألة الرق، فكان ينادي بأن كل قانون أو تشريع وطني ينبغي ان يقوم على مكافحة هذا النظام، المشكلة الأولى التي واجهت لنكولن، على أية حال، هي مشكلة انهيار الوحدة الأمريكية، ففي نهاية سنة 1860 انسحبت ولاية كالورينا الجنوبية من الاتحاد وتبعتها ست ولايات اخرى في بداية سنة 1861 وهي لويزيانا، فلوريدا، تكساس، جورجيا، ألاباما، وميسيسيبي، وفي فبراير من تلك السنة

---

(1) عبد العزيز سليمان نوار وعبد المجيد نعنعي، تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، (بيروت، 1973)، ص 116-118، نور الدين حاطوم، نفس المصدر السابق، ص 171-181.

اجتمع ممثلو هذه الولايات واتخذوا قراراً بإنشاء إتحاد بأسم الولايات الأمريكية الاتحادية، كما وضعوا دستوراً إئتلافياً، قامت جميع الولايات المنسحبة بالتصديق عليه، وتم انتخاب رئيس لهذه الدولة، وهنا بدأت أزمة حادة في تجربة الوحدة الأمريكية حيث سادت في الولايات الجنوبية المشاعر الانفصالية التي هددت بتقسيم البلاد إلى شمال وجنوب، وواجه أبراهام لنكولن هذا الموقف الصعب بقوة وبإرادة وحدوية قوية فقد كان عليه أن يحافظ على الاتحاد بقوة السلاح، وهذا يعني اللجوء إلى الحل العسكري أي الدخول في حرب أهلية قومية وحدوية.[1]

لم تتوقع الولايات الجنوبية أن الولايات الشمالية ستفرض عليها بالقوة العسكرية البقاء في الاتحاد بل اعتقدت أن الأقاليم والولايات الزراعية في الشمال لن تشترك في الحرب الأهلية، وأن عدداً من الولايات الشمالية سوف ينضم إليها، خاصة أنه كان في امكان الولايات الجنوبية إقفال الملاحة على نهر الميسيسيبي في وجه الشمال، ولكن كل هذا لم يحدث فقد أصرَّت الحكومة الاتحادية في واشنطن على مبدأ وحدة الجمهورية الاتحادية وفي النهاية كان الانتصار من نصيب الشماليين على الجنوبيين.

وهكذا يبدو لنا جلياً ان الحرب الأهلية جاءت من أجل الدفاع والمحافظة على الدولة الاتحادية والمكاسب التي حققتها الثورة الأمريكية اثناء نضالها ضد الاستعمار البريطاني، وقد اعطت الحرب الأهلية للأمريكيين إنطلاقة جديدة وكبيرة على طريق المستقبل دون ان تتمكن الدول الأوروبية من التدخل في هذه الحرب، وهكذا أيضاً يتضح لنا ان تجربة الولايات المتحدة الأمريكية الوحدوية قد مرت بمرحلتين ثوريتين أساسيتين، وهما مرحلة الثورة والتوحيد ضد بريطانيا، ومرحلة الحرب الأهلية في سبيل المحافظة والدفاع عن الدولة الاتحادية، الولايات المتحدة الأمريكية، إذاً، صنعت اتحادها في حرب تحريرية ضد عدو خارجي، وقد حافظت على هذا الاتحاد بعد انتهاء حرب الاستقلال، لأنها خافت أن تتحول التجزئة إلى نقطة ارتكاز لتدخلات خارجية أو سيطرة أجنبية، الولايات المتحدة الأمريكية سارت إلى الاتحاد بقوة وبعد تحقيقه تمسكت به كرد قوي على مخاطر خارجية

---

(1) جلال يحيى، معالم التاريخ الحديث، ص 403-406.

وتمكنت أيضاً أن تمد حدود هذا الاتحاد من حدود كندا في الشمال إلى حدود المكسيك في الجنوب.[1]

ثانياً ـ التجربة الايطالية:

في ايطاليا نجد ان مأساة تاريخ الاغريق القديم تتكرر في تاريخ ايطاليا الحديث وخاصة في عصر النهضة الأوروبية، ولكن على مستوى اعمق وأكثر قسوة، فالمدن «الدويلات» الايطالية الممزقة بالصراعات الداخلية والحروب الأهلية عجزت عن تحقيق وحدتها ضد خطر فرنسا واسبانيا وضد طموح البابوية المتصاعد والمستمر، ولهذا خسرت كل هذه المدن ـ ماعدا روما وفينيسيا ـ استقلالها، إلا أن حروب التوسع الفرنسية النابليونية التي خاضتها فرنسا مهدت الطريق أمام إتحاد شبة الجزيرة الايطالية الممزقة سياسياً، ونقول هنا سياسياً لأن ايطاليا لم تكن ممزقة فكرياً، فالقومية الايطالية من الناحية الفكرية كانت بسيطة وغير معقدة، فقد توافرت لايطاليا مقومات القومية حيث توجد بايطاليا وحدة دين ووحدة لغة، فهي كاثوليكية من اقصاها إلى اقصاها، القومية الايطالية مع الوحدة الايطالية كانت مسألة من المسائل التي شغلت أوروبا في القرن التاسع عشر.[2]

كيف بدأت الوحدة الايطالية؟ لقد كانت ايطاليا مسرحاً للقتال بين فرنسا واسبانيا والنمسا، التي كانت تتنافس من أجل الاستيلاء على الاراضي الايطالية، ولكن حتى في القرن الثامن عشر عندما سيطرت النمسا على ايطاليا، لم يكن هناك في الواقع حركات توحيد وتحرير، وكانت ايطاليا تعاني من الاقليمية والتجزئة، وعندما جاءت الثورة الفرنسية غيرت الوضع بشكل جذري، فتوحيد ايطاليا، على الأقل مؤقتاً، في عهد نابليون بعث شعور الوحدة بين اقاليم ايطاليا المختلفة، بالاضافة إلى ذلك فان مبادىء الثورة الفرنسية قد عززت الشعور الوحدوي القومي الايطالي، ونتيجة لذلك واجهت النمسا مداً قومياً قوياً عندما تمكنت من إعادة سيطرتها السياسية والعسكرية على ايطاليا بعد سقوط نابليون.[3]

---

(1) نديم البيطار، نفس المصدر السابق، ص 145-146.

(2) راجع جلال يحيى، معالم التاريخ الحديث، ص 329-367.

(3) نديم البيطار، نفس المصدر السابق، ص 140-141.

في البداية لم يكن للجمعيات السرية التي حاول القوميون الايطاليون ان يجتمعوا فيها تأثير على الجماهير الايطالية ومع ذلك وبالرغم من ضعف التأثير وقلة العدد فإن هذه الجمعيات كانت تتميز بقوة معنوية، وذلك لأنها احتفظت بمراكز عاشت فيها مبادىء الثورة الفرنسية. ولكن الطريق كان لايزال طويلا وشاقاً أمام الشعور بالمصير القومي في ايطاليا لكي ينتشر في كل مكان من ايطاليا.

ومن ناحية اخرى كان النظام الأوروبي، الذي وضع في سنة 1815 يقوم على أساس التحالف والتشاور في مؤتمرات دورية للقضاء على الحركات الثورية التي إنتشرت في أوروبا في القرن التاسع عشر، وفي ايطاليا شملت الحركة الثورية بعض الضباط وبعض أصحاب المهن الحرة وهي الحركة التي شرعت في اعمالها سنة 1820-1821 في كل من نابولي وتورينو وكانت تهدف إلى نظام دستوري وإلى اتحاد ايطالي، وقد فكر سانتا روزا «Santa Rosa» زعيم الثوار في بيدمونت في تحرير لومبارديا والبندقية من السيطرة النمساوية .. إلا أن هذه الحركة الثورية بالرغم من اخلاصها وصدق ثوريتها لم تكن حركة شعبية، بل كانت نتيجة لجهود مجموعات محدودة العدد من الأفراد، وجمعيات سرية متفاوتة في تأثيرها الثوري، بالاضافة إلى ذلك فان هذه الحركة لم تهدد الوضعية الاقليمية في ايطاليا والتي نتجت عن معاهدات سنة 1815 ولكنها هددت النظام الاجتماعي والسياسي وقد حاولت روسيا ان تلجأ إلى مشروع التدخل المشترك في المناطق المهددة بالحركات الثورية ولكن بريطانيا اعترضت على ذلك وطُرحت الفكرة جانباً.[1]

اما مترنيخ، وزير خارجية النمسا، فقد كان يحث ملوك وأمراء أوروبا على مكافحة هذه الاراء الثورية التحررية والضرب بشدة على أيدي الذين ينادون بها أو يشجعونها، واعتقد مترنيخ ان القومية تسير جنباً إلى جنب مع فكرة الحرية، ولذلك حاول المحافظة على الوضع الراهن «Status quo» أي بقاء ايطاليا مفككة خاضعة للأنظمة الرجعية وقد كان مترنيخ هو الذي يدير فعلياً، وأكثر من الحاكم الروسي،

---

(1) القارىء سيجد معلومات تفصيلية حول مسألة الوحدة الايطالية عند جلال يحيى، معالم التاريخ الحديث، ص 329-367، أيضاً عبد العزيز سليمان نوار وعبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر: أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، (بيروت، 1973)، ص 245-265.

سياسة ضرب الحركات الثورية والتدخل ضدها، وخاصة في شبه الجزيرة الايطالية، فقد كان يعتقد أن بقاء نظام مطلق في الولايات الايطالية يتفق مع مصالح النمسا وضروري للاحتفاظ بسيطرتها على ايطاليا ولكن هذه السياسة قد أقلقت الحكومة الفرنسية التي كانت تهدف إلى معارضة النفوذ النمسوي في ايطاليا بنفوذ آخر معادل، ومن الطبيعي ان تعطي السياسة الفرنسية هذه أملا للعناصر الثورية الايطالية في الحصول على مساعدة خارجية، كما أنها دفعت بالجمعيات الثورية وخاصة جمعية الكاربوناري إلى توسيع أهداف الحركة الثورية، فالثوار الايطاليون، الان، شرعوا في إعداد خطة لاشعال نار الثورة في كل شبه الجزيرة الايطالية، وبدلا من محاولة إسقاط النظم السياسية المطلقة فقط هدفوا أيضاً إلى محاولة انهاء الوجود السياسي والعسكري النمسوي في ايطاليا وإلى وحدة الولايات الايطالية، وقد كانت الظروف الاقتصادية تساعد إلى حد كبير على مقاومة بعض الولايات الايطالية وخاصة البندقية ولومبارديا للوجود النمسوي، فقد كانت مصالح رجال الصناعة في ميلانو مثلا تدفعهم إلى الشكوى من الرسوم الجمركية التي تتعرض لها منتجاتهم عند دخولها النمسا في الوقت الذي كانت فيه اسواق لومبارديا مفتوحة تماماً للمنتجات الزراعية والصناعية النمسوية.

المشكلة الأولى، إذاً، هي قضية التحرر من الحكم النمسوي المسيطر على شمال إيطاليا ووسطها أي استقلال شبه الجزيرة الايطالية وإبعاد النفوذ النمسوي على الولايات الايطالية، ويبدو ان الرأي العام الايطالي ينظر إلى الوحدة الايطالية الكاملة نظرة مستقبلية، فالايطاليون كانوا يتخوفون من صعوبة إنجازها نظراً لمعاداة أكثر الدول الكبرى لها، فالوحدة الايطالية، في البداية، بالرغم من انها كانت أملا جماهيرياً، إلا أنها كانت بالدرجة الأولى مطلب المثقفين والمفكرين الثوريين وعناصر الأحرار أكثر مما كانت مطلباً شعبياً عاماً[1]، كل ما كان يريد الشعب الايطالي ان يحصل عليه بعد التحرير هو نوع من الاتحاد الفيدرالي يوحد النشاطات السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية في ايطاليا.

في الواقع ان الحركة القومية الايطالية قد تعثرت في البداية، فالحركة الوحدوية

---

(1) عبد العزيز سليمان نوار وعبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، ص 248.

الايطالية قد عانت من مقاومة المشاعر الانفصالية والتي كانت دائماً تثور في ايطاليا، وقد أشرت فيما سبق إلى أن ايطاليا قد ظهرت فيها ما تسمى بوطنية المدن منذ زمن بعيد أي منذ زمن العصور الوسطى، وقد كان التركيب الاجتماعي في هذه المدن يختلف من منطقة إلى اخرى، أضف إلى ذلك معارضة الامراء والملوك الذين كانت دولهم الصغيرة مهددة بأن تزول عند امكانية تحقيق الوحدة الايطالية، ولكن مع بداية سنة 1857 إستعادت الحركة القومية قوتها وذلك بعد ظهور، «كافور» على مسرح السياسة والذي كان بامكانه أن يؤثر على مجرى الأحداث السياسية الداخلية في ايطاليا، وقد اعتقد «كافور» ان الشعب الايطالي كان في حالة لا تقبل من الضعف وذلك بسبب التجزئة السياسية وأعلن إيمانه القوي بضرورة بعث إيطاليا وإخراجها من فوضى التمزق السياسي إلى الوجود كدولة قومية موّحدة، وفي سنة 1857 أعلن «كافور» أنه يثق في أن ايطاليا قادرة على أن تكون دولة واحدة وستكون روما عاصمة للدولة الموّحدة وأكد أيضاً انه لابد من الحل الوحدوي ولابد من تأسيس الدولة القومية الوحدوية.[1]

وهكذا يمكننا ان نلاحظ بشكل جلي ان وصول «كافور» إلى الحكم في سردينيا سنة 1852 والتأييد العام الذي حصل عليه من الملك ومن مختلف الأوساط الوطنية والثورية قد أوجد معطيات قومية جديدة ووفر أيضاً إمكانيات لم تكن متوقعة سهلت إلى حد كبير السير في طريق الوحدة الايطالية وفي طريق التحرر من السيطرة الخارجية، وقد كان «كافور» على اتصال مستمر بالجمعيات الثورية السرية في ايطاليا على إختلاف نزعاتها وميولها السياسية ومتعاوناً معها أيضاً، كما أنه قد اشترك في الأحداث الثورية التي جرت سنة 1848.[2]

ومن ناحية اخرى قد ساهم رجال الفكر في حركة البعث القومي الايطالي، فالمفكرون الايطاليون حاولوا بصدق أن يجندوا أنفسهم في خدمة التربية القومية الايطالية، كما حاول المؤرخون الايطاليون أن يشرحوا أسباب التجزئة والاقليمية والتقسيم السياسي في شبه الجزيرة الايطالية وأعادوا ذكرى العصور التي كانت

---

(1) جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية 1815-1914، ص 5-10.

(2) عبد الحميد البطريق، التيارات السياسية المعاصرة، ص 32-35.

إيطاليا فيها مركزاً هاماً للحياة الاقتصادية والسياسية في العالم[1]، ومن هذا يتضح ان اليقظة القومية في ايطاليا كانت في البداية من عمل مجموعة من الرجال المختلفين في أصلهم وفي ظروفهم الاجتماعية، وقد كان مركز الاهتمام في هذه الحركة القومية الفكرية هو عمل الكتاب السياسيين الذين قدموا حلولا للمسألة الايطالية، والباحث في تاريخ ايطاليا الحديث يمكنه ان يلاحظ ان الفكر السياسي كان متقدماً نسبياً في شمال إيطاليا حيث نقلت إلى اللغة الايطالية مؤلفات المفكرين الألمان الذين كتبوا عن الحرية والقومية، ومع ذلك فان وحدة وجهات النظر كانت غير موجودة بعد، بين مفكري الحركة القومية الوحدوية الايطالية في السنوات التي اعقبت سنة 1840 مباشرة.

كان بعض الثوريين الايطاليين ملتفين حول القومي الايطالي «ماتسيني» الذي كان قد إنضم فعلياً إلى حركة الكاربوناري منذ سنة 1831 في مرسيليا ثم في لندن، وقد كان «ماتسيني» يؤمن بأن على الشعوب أن تحصل على حرية ممارستها لسيادتها ويمكنها ان تصل إلى ذلك في حالة تطابق فكرة الدولة مع فكرة القومية، وإذا ما كانت منظمة وفقاً للمبادىء الديمقراطية والجمهورية وعلى الايطاليين أن يقوموا بدور كبير في تحقيق هذا البرنامج الوحدوي وتدمير السلطة البابوية التي كانت تعرقل التقدم القومي والتقدم الانساني، وعليهم ايضا انهاء الوجود النمسوي الذي كان رمزاً للجمود ولسلبية المبدأ القومي[2]، بالاضافة إلى ذلك فان «ماتسيني» كان يؤمن بأنه على الحركة الوحدوية أن تقدم شهداءها إذ أن روح تضحية هؤلاء الثوار سيكون لها قيمة مثالية عند الجماهير، في الواقع ان «ماتسيني» كان يمارس نفوذه وتأثيره، أكثر من آرائه ونظريته، وذلك عن طريق استعمال مواهبه، والمجموعات الثورية التي كان يؤثر عليها ويحركها، مثل جمعية

---

(1) من هؤلاء المؤرخين كارلو تروجا «Carlo Troja»، في كتابه عن تاريخ ايطاليا في العصور الوسطى وشيزارِ كانتو «Cesare Cantu» الذي كتب تاريخ العالم في خمسة وثلاثين مجلداً ولويجي فاريني «Luigi Farini» في كتابه الدولة الرومانية منذ سنة 1418م.

(2) صلاح العقاد، دراسة مقارنة للحركات القومية في ألمانيا وايطاليا والولايات المتحدة، القاهرة: 1967م، ص 61-84، نور الدين حاطوم، نفس المصدر السابق، ص 98-129، جلال يحيى، نفس المصدر السابق، ص 337-338.

أوروبا الفتاة، وجمعية ايطاليا الفتاة، وقد انار برنامجة الثوري القومي قلق البورجوازية الايطالية، ولكنه في الوقت ذاته وجد اعضاء متحمسين للقضية القومية الايطالية في جماهير المدن وفي بعض المراكز التجارية أيضاً.

وهناك أيضاً «غاريبالدي» القومي الايطالي الذي كان متطرفاً وطنياً ومتعصباً قومياً وكان أيضاً زعيماً شعبياً وجماهيرياً، ويؤمن بأن الوحدة هي قدر محتوم بالنسبة للايطاليين وانها آتية لا ريب فيها.

وقد كان الوطنيون الايطاليون ـ وهم الانصار الفعليون والحقيقيون لمسألة الوحدة القومية الايطالية ـ غالباً من المثقفين الذين كان لديهم شعور قوي بالانتماء القومي لايطاليا وبالمصير القومي الايطالي والذين كانت تدفعهم ذكريات تاريخية قوية، بالاضافة إلى ذلك فان الحكم الفرنسي في أوروبا ـ بما في ذلك ايطاليا ـ قد أيقظ حركة القوميات ونشر مبادىء الثورة الفرنسية في مختلف أنحاء القارة الأوروبية.[1]

ويرجع تأخر تحقيق الوحدة القومية الايطالية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى عدم توفر «الاقليم ـ القاعدة» الذي يمكن عن طريق الارتباط به والعمل معه تحرير الأقاليم الايطالية المحتلة وتمحور الحركة القومية الايطالية حوله أيضاً، أما التفكير الايطالي القومي الوحدوي التحريري فكان قد تبلور ونما اثناء النضال ضد النمسا، ومع ذلك لم يكن الاحتلال النمسوي لايطاليا هو التحدي الخارجي الوحيد الذي أثار المشاعر القومية في ايطاليا ودفعها إلى الاتحاد السياسي، فايطاليا كانت أيضاً تناضل ضد طموحات البابوية المستمرة.[2]

وهكذا يتضح جلياً لنا دور الخطر الخارجي في بعث وإيقاظ المشاعر القومية ودفع الشعوب المجزأة سياسياً إلى الاتحاد السياسي، مع ملاحظة ان دور الخطر الخارجي يتضح بصورة خاصة بين سكان الاقاليم المتاخمة للحدود والذين كانوا يعبرون عادة عن أكثر الاشكال القومية والوحدوية حدّة وذلك بسبب مواجهتهم المباشرة لهذا الخطر، هذه الظاهرة تبدو أكثر وضوحاً في التجربة الوحدوية الايطالية وأيضاً في التجربة الألمانية كما سنرى في الصفحات القادمة.

---

(1) جلال يحيى، معالم التاريخ الحديث، ص 350-365.

(2) نديم البيطار، نفس المصدر السابق، ص 138-142.

ثالثاً ـ التجربة الألمانية:

من الصعب التحدث عن أمة ألمانية واعية بذاتيتها القومية في العصور الوسطى، ألمانيا في ذلك الوقت كانت ذات مفهوم جغرافي وثقافي محدود ولم تكن هناك لغة ألمانية واحدة معترف بها قبل نهاية القرن السادس عشر[1]، ولكن منذ سنة 1815 تقريباً ظهرت حركة فكرية جادة وواسعة في ألمانيا من أجل الوحدة القومية الألمانية، وخلال سنة 1817-1818 كانت إتحادات الطلاب التي تكونت في كل جامعة بألمانيا مركزاً للاراء التقدمية والأفكار القومية التي تميزت بها الحركة الفكرية في ألمانيا.

لا شك ان رسم حدود تفرق بين من يتحدثون لغة واحدة، ولهم عادات وتقاليد واحدة، وذكريات تاريخية واحدة وميول ثقافية متقاربة أمر غير مقبول من وجهة النظر القومية الحديثة، وقد كان هذا هو حال ألمانيا قبل سنة 1871، كيف إذاً توحدت ألمانيا ومن الذي قام بهذا الانجاز الوحدوي التاريخي، ان ألمانيا لم تكن وحدة سياسية قومية، بل كانت امبراطورية تتألف من 360 ولاية ولكن مع ذلك، نجد إلى جانب هذه التجزئة السياسية، وحدة فكرية، ويعتبر هردر Herder (1744-1803) نموذجاً لمفكري القرن الثامن عشر في ألمانيا، فقد حاول ان يستنتج مميزات الأمة الألمانية باعتبارها كياناً ثقافياً قائماً بذاته ولكن لم ينته به الأمر إلى الدعوة إلى الوحدة السياسية الألمانية، فالتفكير الوحدوي قد تبلور اثناء النضال الألماني ضد الخطر والوجود الفرنسي، واغلب المفكرين الألمان قد ظهروا في ألمانيا الشرقية والشمالية، ومع ذلك كلهم اعتبروا بروسيا قاعدة لمعركة التوحيد والتحرير، ووطنهم الروحي.[2]

وقد كان العامل الاقتصادي هاماً ومؤثراً على حركة الوحدة الألمانية، فالنمو الاقتصادي دفع بالتجار ورجال الأعمال والصناعة والحرف الحرة إلى الرغبة في إقامة اتحاد جمركي اقتصادي بين الولايات الألمانية، يمكنه أن يضمن لهم الاسواق،

---

(1) صلاح العقاد، نفس المصدر السابق، ص 19.

(2) نور الدين حاطوم، نفس المصدر السابق، ص 24-25، أيضاً ص 153-170، البيطار، نفس المصدر السابق، ص 139، جلال يحيى، معالم التاريخ الحديث، ص 368-396.

ويعتبر الاتحاد الجمركي أو الاقتصادي الذي وضعت أسسه في سنة 1818، والذي أنشيء رسمياً في أول يناير سنة 1834 استجابة صادقة لهذه الرغبة وهو أيضاً محاولة لمعارضة تفوق النمسا الاقتصادي، والمهم ان نلاحظ أن وحدة الولايات الألمانية في رابطة جمركية اقتصادية سينتج عنه في نفس الوقت نظام عسكري وسياسي موحد، فألمانيا كلها ستصبح شعباً واحداً، ووحدة قوية بادماجها لمصالحها الاقتصادية، ـ الوحدة الاقتصادية ـ إذاً، تعتبر أول خطوة جادة نحو الوحدة السياسية الألمانية، فقد كان لنظام الاتحاد الجمركي أثره خلال الثلاثين سنة التي تلت تأسيسه في اجتذاب جميع الولايات الألمانية إلى الانضمام إلى ذلك الاتحاد الاقتصادي، بروسيا، وهي الولاية الألمانية القوية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، تمكنت من أن تضع أسساً قوية ومتينة لاقامة دولة ألمانية موحدة تحت سيطرتها.[1]

وبناء على ذلك يمكننا ان نقرر ان الاتحاد الاقتصادي مهد للوحدة السياسية، فوحدة الولايات الألمانية في اتحاد اقتصادي متين نتج عنها نظام سياسي واحد ومتين أيضاً، ان الوحدة السياسية تبدأ بوحدة الفكر أولا والوحدة الاقتصادية ثانياً.

ومن ناحية اخرى أوجدت الظروف في بروسيا في ذلك الوقت رجلا قوياً «يعرف ما يريد ويعرف أيضاً كيف يصل إلى ما يريد»، أقصد «بسمارك» هو الرجل الذي سار بالشعب الألماني بقوة ثبات نحو الوحدة الكاملة، كان بسمارك صاحب شخصية قيادية قوية جداً ويؤمن بمبادىء ملكية استبدادية لدرجة تجعله يكره الشعب ولا يؤمن بحقه في الاشتراك بالحكم، هذه الميزات جعلت الملك يعينه سفيراً في روسيا ثم في باريس حيث بقي هناك حتى سبتمبر سنة 1862 عندما ترأس الوزارة البروسية، وقد اتاحت له فرصة وجوده كسفير لبلادة في روسيا وفرنسا الاتصال بالمشكلات الدولية الكبيرة وقد كان هذا الاتصال ضرورياً للغاية، فقد اقتنع بسمارك بان الصراع مع النمسا قد اضحى محتوماً وضرورياً، لقد كان الهدف هو تحقيق الوحدة الألمانية وقد آمن بسمارك بأن هذا الهدف لا يمكن ان يتم إلا بالقوة ومن ناحية اخرى كان بسمارك يعتقد ان زعامة بروسيا في المانيا تفرض عليها القيام بأعباء الوحدة، وإذا لم تقم بروسيا بذلك فان هذا يعني ان

(1) عبد الحميد البطريق، التيارات السياسية المعاصرة 1815-1960، ص 35-41، انظر أيضاً محمد كمال الدسوقي، تاريخ ألمانيا (القاهرة، 1969)، ص 77-100.

الوحدة لن تتحقق، ومن أجل ذلك خاضت بروسيا حربين مع النمسا، أولا في سنة 1866-1867، ومع فرنسا ثانياً وذلك في سنة 1870-1871.

وقد كان للمستشار الألماني الكثير من السلطات القانونية والفعلية لادارة السياسة الألمانية الداخلية والخارجية، وقد كانت اهتمامات المستشار الكبرى هي اتمام الانجاز الوحدوي وقد دفعه ذلك إلى العمل من أجل تحطيم المجموعات السياسية التي كان يعتقد ان في وسعها ان تجد تجاوباً مع الخارج وبالتالي ربما تعرقل العملية الوحدوية، كما عمل المستشار على ان ينفذ سياسته الوحدوية عن طريق استعمال الطرق العسكرية وخاصة ضد النمسا، وهكذا بدأت عملية بناء الوحدة الألمانية بعملية عسكرية ضد النمسا ثم بعد ذلك فرنسا وهكذا تم حسم الأمر بالنسبة للخطر الخارجي، وعندما وافقت ولاية بافاريا على دخول اتحاد امارات الشمال الألمانية وذلك في الثالث والعشرين من نوفمبر سنة 1870، زالت أكبر عقبة في سبيل وحدة ألمانيا، وبدخول بقية ولايات الجنوب الألماني في اتحاد ألمانيا الشمالي تكون اتحاد ألماني كبير يشتمل على الولايات الألمانية كلها، وفي الثامن عشر من يناير سنة 1871 أعلن المستشار الألماني، بسمارك، قيام الدولة الألمانية الموحدة في قصر فرساي في باريس، العاصمة الفرنسية، وبذلك تكّونت الدولة الألمانية الاتحادية من خمس وعشرين ولاية ألمانية ومعها الألزاس واللورين.[1]

وهكذا انجزت الوحدة الألمانية بالاستعداد والتدريب، والتسليح، والحرب السريعة التي تمت على ثلاث مراحل، الأولى ضد الدانمرك والثانية ضد النمسا والثالثة ضد فرنسا، وقد حصل بسمارك على سلطة لا مثيل لها نتيجة لعدد من العمليات العسكرية الناجحة من سنة 1862 إلى سنة 1870 وقد اعترف له رجال السياسة في أوروبا بتفوق وذكاء حاد في المشكلات الدولية وقد كان ساسة أوروبا يكرهونه ويعجبون به ويخشونه في نفس الوقت ويتساءلون في كل فرصة عما يفكر فيه هذا الرجل القوي، الواقع ان بسمارك كان يمتاز بالرغبة الشديدة في السيطرة وبخصوبة في الفكر السياسي بالاضافة إلى الارادة القوية والعزيمة الصلبة والتصميم،

---

(1) من أجل تفاصيل أكثر حول مسألة الوحدة الألمانية انظر:

Friedrich Engels, the role of force in history: A study of Bismarck's policy of Blood and Iron, Transleted by Jack Cohen and edited by Ernst Wangermann (New york, 1968).

وفي اغلب الاحيان كان بسمارك لا يهتم بالاسلوب الرقيق الهادىء للدبلوماسية التقليدية، ويستخدم التهكم والسخرية والاحتقار بدلا من ذلك، إلا أنه لم يكن في الواقع ذو ثقافة واسعة، فلم يكن له، مثلا، ذوق فني ولا إحساس موسيقي، ولم يكن له اهتمام بالشؤون العلمية ولا حتى بالدراسات التاريخية بالرغم من أنها ذات علاقة باهتماماته الدولية والسياسية.

على أية حال لقد استطاعت الوحدة القومية الألمانية ان تكون حادثاً تاريخياً فريداً في التاريخ الحديث، فلقد تحققت الوحدة الألمانية بعد تجزئة سياسية استمرت قروناً طويلة، فكما رأينا في بداية القرن التاسع عشر لم تكن الوحدة الألمانية سوى فكرة في ذهن المفكرين من فلاسفة وشعراء وكتاب، إلا أنها شرعت تأخذ واقعاً حسياً وتصبح مادية مع مرور الزمن وخاصة بعد تأسيس الاتحاد الجمركي وتطور المواصلات وخاصة السكك الحديدية، ومع ذلك فقد مضت سنوات طويلة إلى ان تحولت الفكرة القومية من المجال الاقتصادي إلى المجال السياسي.

ان الوحدة الألمانية كانت نتاج قوة ألمانيا الاقتصادية والعسكرية وضعف الدول المجاورة وهي أيضاً كانت انتصاراً لحركة قومية واعية وتعتبر بداية حقيقية لمرحلة جديدة واستراتيجية جديدة بالنسبة لتاريخ ألمانيا الحديث والتاريخ الأوروبي الحديث وتاريخ العالم أيضاً.

هكذا يتضح لنا من دراسة التاريخ السياسي والعسكري لتجارب التاريخ الوحدوية، ان الوحدات السياسية التي تمت عن الطريق الاتحادي غير موجودة في الشرق تقريباً وأنها قليلة في الغرب أيضاً باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية وسويسرا وهولندا وكندا واستراليا، إلا أن تجربة الولايات المتحدة الأمريكية قد احتاجت، كما سبق ان اشرنا إلية، في مرحلتها الاخيرة إلى حرب أهلية استمرت فترة من الزمن وذلك من أجل تأكيد ذاتها وتدعيم اتحادها وذلك عندما فرضت الدولة الاتحادية أو بكلمات أكثر دقة الولايات الشمالية بالقوة العسكرية على الولايات الجنوبية البقاء في الاتحاد، الحرب الأهلية الأمريكية، إذاً كانت عاملا أساسياً وهاماً في بناء حضارة وتكوين وحدة الولايات الشمالية والجنوبية التي كادت وحدتها ان تنهار قبل الحرب الأهلية.

بناءاً على ذلك يتضح ان عملية التوحيد السياسي لجماعات عديدة واحياناً

متناقضة في كيانات سياسية جديدة كانت دائماً تحتاج للقوة العسكرية وتعتمد عليها، بالاضافة إلى ذلك فان الدراسات التاريخية والسياسية[1] تؤكد ان عملية التوحيد السياسي هذه كانت باستمرار أساسياً تنجز عن طريق القوة العسكرية لا عن طريق الاتفاقيات باستثناء بعض الحالات كاتحاد جنوب افريقيا[2]، مثلا، وتستمر عن طريق القوة العسكرية أيضاً وذلك حتى تستقر أنظمتها نفسياً وسياسياً، ولكي تكون العملية الاتحادية قوية وثابتة ينبغي ان تعتمد على عناصر أخرى أقوى وأهم في المدى البعيد، مثلا موافقة الأقاليم التي تمتد إليها الوحدة السياسية، كموافقة الولايات الألمانية، مثلا، على الاتحاد الاقتصادي، ثم على الوحدة السياسية، بالاضافة إلى ذلك فان عملية التوحيد السياسي تحتاج إلى إرادة شعبية عامة تدعمها وفي بعض الأحيان نجد الوسيلتين جنباً إلى جنب، كما هو واضح في تجربة الولايات المتحدة الأمريكية.

ولكن في اغلب الاحيان نجد ان الموافقة العامة كانت تتأخر كثيراً عن ممارسة القوة وتأتي كنتيجة بعيدة لها وهذا يبدو جلياً في التجربة البريطانية، ومن ناحية اخرى نجد ان الاتجاه نحو إقامة الوحدة السياسية قد يبدأ قبل تحقيقها بفترة طويلة من الزمن وهذا واضح في التجربتين الايطالية والألمانية، فالتجربة الايطالية توضح لنا كيفية إنتقال وحدات سياسية مجزأة عبر التاريخ العالمي إلى الاتحاد السياسي، أما التجربة الألمانية فتوضح ان عملية التوحيد السياسي كانت تتطلب سياسة القوة، فالوحدة الألمانية، في الواقع، لم تستكمل إلا بعد عملية مواجهة عسكرية عنيفة مع الدول المجاورة وخاصة مع فرنسا.

إذاً من خلال دراسة الحركات القومية والوحدوية نكتشف ان هذه الحركات تشترك في نقاط وتختلف في اخرى ولكنها جميعاً تهدف إلى صناعة الدولة القوية

---

(1) انظر مثلا:

Amitai Etzioni, Political unification: a comparative study of leaders and forces (New york, 1965).

(2) اتحاد جنوب افريقيا تأسس في 31 مايو سنة 1910، انظر:

The oxford history of South Africa V. 2 South Africa 1870-1966 (Oxford, 1971).

T.R.H. Davenport, South Africa: A modern history (Toronto, 1977).

وتأسيس الدولة القومية، ويبدو مؤكداً ان العامل الرئيسي الهام الذي يظهر ويتكرر في كل قومية هو العامل الذاتي أي الشعور بهوية واحدة مشتركة، وهذا العامل هو الذي يدفع الشعوب إلى الدفاع عن الوطن والمحافظة على الهوية الاجتماعية والثقافية.

وتتشابة وتختلف حركة الوحدة الايطالية وحركة الوحدة الألمانية في عدد من النقاط الهامة، من مظاهر التشابه، مثلا، ان الخطوة الأساسية في الوحدة الايطالية لم تستكمل إلا بعد حرب أوروبية ضد النمسا وذلك في سنة 1859، وكذلك لم تتم الوحدة الألمانية إلا بعد صدام مسلح عنيف مع فرنسا، ونقطة التشابه الاخرى تكمن في القاعدة الجغرافية، من المتفق عليه عند أغلب المؤرخين ان القاعدة الجغرافية هي احدى عناصر القومية، لا شك أن أكثر الدول القومية تم تأسيسها عن طريق الوحدة الجغرافية كما هو واضح في الولايات المتحدة الأمريكية وايطاليا وألمانيا، ومع ذلك ينبغي مراعاة ان هناك استثناء، فالوحدة الجغرافية ليست عاملا أساسياً في نشوء كل القوميات، فقد إنتشر الاغريق، مثلا، في مناطق جغرافية متعددة وبالرغم من ذلك احتفظوا بوحدتهم القومية.

ومن مظاهر التشابه أيضاً ان الوحدة قامت في احدى الولايات الكبرى بناء على وجود قيادة وحدوية، واعية وقومية تبنت عملية الوحدة، في ايطاليا قادت الوحدة ولاية بيدمونت بقيادة كافور رئيس الوزراء، وفي ألمانيا قادت الوحدة بروسيا بقيادة بسمارك، رئيس الوزراء أيضاً، أما في الولايات المتحدة الأمريكية فالولايات الشمالية هي التي تولت قيادة الوحدة ودافعت عنها، ومن مظاهر التشابه أيضاً نمو الشعور القومي في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وايطاليا وألمانيا، ان هدف القومية دائماً هو تأسيس دولة قومية وأخيراً نلاحظ ظهور أبطال ورجال سياسيين يؤمنون بالوحدة في هذه الدول، ماتسيني وغاريبالدي وكافور في ايطاليا، وبسمارك في ألمانيا، وجورج واشنطن وابراهام لينكولن وتوماس جيفرسون في الولايات المتحدة الأمريكية، ويرى بعض المؤرخين ان تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية هو أساساً تاريخ عدد من الشخصيات القيادية البارزة.

أما نقاط الاختلاف فتكمن في ان عنصر البطولة الشعبية كان جلياً وبارزاً في حركة الوحدة الايطالية ولكنه كان غير واضح في التجربة الوحدوية الأمريكية وحركة الوحدة الألمانية، ففي ألمانيا لا نجد حركة قام بها المتطوعون المخلصون الأحرار، كما

حدث في ايطاليا، حيث قام غاريبالدي ومجموعة الألف متطوع ذوي القمصان الحمراء بدور هام في بناء الوحدة، ولكن في ألمانيا تولى العنصر الحكومي العمل من أجل الوحدة، إلا ان هذا لا يعني ألبتة ان التجربة الوحدوية الألمانية لم تكن تعبر عن أماني وآمال الشعب الألماني، الاختلاف إذاً لم يكن في الغاية بل في الوسيلة.

ومن نقاط الاختلاف أيضاً ان البابوية في ايطاليا قد لعبت دوراً اساسياً في عرقلة وتأخير قيام الوحدة الايطالية، ولكن لم يكن لنفوذ البابوية وجود في ألمانيا، بالاضافة إلى ذلك فان حركة الوحدة الايطالية لم تقم إلا بناء على مساعدة خارجية من فرنسا، أما في ألمانيا فان عملية الوحدة تمت عن طريق القيادة الألمانية والشعب الألماني دون مساعدة خارجية، واخيراً نلاحظ انه في الوقت الذي تمكن فيه بسمارك من القضاء على الخطر الفرنسي وخطر النمسا تحقيقاً للوحدة الألمانية نجد أن الوحدة في إيطاليا قامت بعد هزيمة النمسا ولكن بمساعدة خارجيةمن فرنسا وبريطانيا.

هكذا قد حاولت في هذه الدراسة، دون أن أدخل في تفاصيل عديدة، أن أقدم خطوطاً عريضة لتجارب التاريخ الوحدوية في كل من الولايات المتحدة الامريكية وايطاليا وألمانيا على التوالي وعلاقتها بالفكر القومي والاتجاهات السياسية الأخرى، ولكن لم أعرض إلا بالايجاز لتجارب التاريخ الوحدوية الاخرى، لأن الغرض من الدراسة هو التحليل في حدود الامكان للانجازات التاريخية الوحدوية في الدول المشار إليها.